نظريّة سياق الحال وتجلّياتها من خلال بعض النّماذج القرآنيّة

– دراسة دلاليّة –

The theory of the context of the situation and its manifestations through somme quranic models

- semantic study -

أ. عبد الغني الزيتوني♥

تاريخ الاستلام: 22-11-2023 تاريخ القبـول: 31-07-2024

ملخّص: تعدّ نظريّة سياق الحال من أهمّ النّظريات التي ذاع صيتها وملأت الأرجاء بما تضمّنته من أفكار لغويّة علميّة مقنعة إلى حد بعيد، في إطار منهجي محدّد المعالم، الذي بواسطته يمكن معالجة المعنى ومشكلاته وانطلاقًا من هذا نسعى في هذا البحث إلى تطبيق النّتائج التي توصّلت إليها هذه النّظريّة في القرآن الكريم، وهذا من خلال التّعريف بهذه النّظريّة والبحث في عن جذورها في تراثنا اللّغويّ العربي، ثم تجلياتها في هذا النّص المقدّس.

كلمات مفتاحيّة: سياق الحال؛ دلالة؛ تفسير؛ معنى.

♥جامعة أمحمد بوقرة بومرداس، الجزائر، البريد الالكتروني:
a.ezzitouni@univ-boumerdes.dz (المؤلّف المرسل).

Abstract: The context theory is one of the most important theories that became famous, and filled the space with its convincing scientific linguistic ideas to a large extent, within a well-defined methodological framework, through which meaning and its problems can be addressed, and based on this, we seek in this research to apply the results I reached This theory is in the Holy Qur'an, and this is through defining this theory and searching for its roots in our Arabic linguistic heritage, and then its manifestations in this sacred text.

Keywords: the context of situation; semantic; interpretation meaning.

–**مقدّمة:** اهتم اللّغويّون بالمعنى قديما وحديثا، وجعلوه المحور والمبتغى الذي تهدف إليه بحوثهم، وتسعى إلى تحديده، وأما حديثا فقد تعددت النّظريات التي تبحث في المعنى، خاصّة مع ظهور علم قائم بذاته في هذا الشّأن ألا وهو علم الدّلالة، ومن تلك النّظريات، النّظريّة الإشاريّة والتّصويريّة والسّلوكيّة وغيرها.

ولقد حظيت نظريّة سياق الحال باهتمام كبير من لدن الدّارسين اللّغويّين المحدثين، وذاع صيتها بما تضمنته من أفكار لغويّة علميّة مقنعة إلى حد بعيد، وفي إطار منهجي محدّد المعالم، وعدّت بذلك أهم نظريّة عالجت المعنى ومشكلاته، بحيث انبرى العالم البريطاني جون فيرث (1890–1960) في ضوء دراسة المعنى يبحث جملة الطّرق الدّقيقة التي تمكّن من المعنى وتوصل لفحوى النّص.

وبعد التّعريف بهذه النّظريّة، والتّعرف على ظروف نشأتها وتطورها، ثم البحث عن جذورها في تراثنا اللّغويّ العربي، سنسعى في هذا البحث إلى الإجابة عن الإشكاليّة الآتيّة:

-كيف تجلّت مبادئ هذه النّظريّة في القرآن الكريم؟ وما سبل استثمار هذه المبادئ؟

في محاولة تطبيقها على بعض النّماذج من القرآن الكريم، ونختم بحثنا بأهم النّتائج المتوصل إليها، باستخدام المنهج الوصفي التّحليلي، من خلال تحليل تلك الآيات.

2. التّعريف بنظريّة سياق الحال: قبل التّعريف بهذه النّظريّة نقف عند التّعريف اللّغويّ للسياق، حيث ورد في معجم مقايس اللّغة لابن فارس: "السّين والواو والقاف أصل واحد، وهو حدْو الشّيء، يقال: ساقه يسوقه سوقا، والسّيقة ما استيق من الدّواب، ويقال: سقت إلى امرأتي صداقها، وأسقته، والسّوق مشتقّة من هذا لما يساق إليها من كل شيء"[1]. وفي لسان العرب: "ساق الإبل وغيرها يسوقها سوقا وسياقا، وهو سائق وسواق"[2].

وأصل الجذر اللّغويّ (س و ق) سِواق، وقلبت الواو ياء، مماثلة لكسرة السّين قبلها، وأما كلمة (الحال) فهي الجذر اللّغويّ (ح و ل) فهي كنيّة الإنسان، وهو ما كان عليه من خير أو شر، والجمع أحوال وأحولة"[3].

وقد صيغ مصطلح (سياق الحال) عن طريق التّركيب الإضافي حتى أصبح يعني في ميدان علم اللّغة الحديث: "السّياق الذي جرى في إطار التّفاهم بي شخصين، ويشمل ذلك، المحادثة، ومكانها، والعلاقة بين المتحادثين، والقيم المشتركة بينهما والكلام السّابق للمحادثة"[4]، ويعرّف أيضًا بأنّه: "جملة العناصر المكونة للعنصر الكلامي (أو الحال الكلاميّة) ومن هذه العناصر:

-شخصيّة المتكلّم والسّامع وتكوينهما الثّقافي، وشخصيات من يشهد الكلام غيرَهما ومدى مشاركتهم في الكلام؛

–العوامل والظّواهر الاجتماعيّة ذات العلاقة باللّغة، وبالسّلوك اللّغويّ كحالة الجو والوضع السّياسي ومكان الكلام؛

–أثر الحدث الكلامي في المشتركين"[5].

وهذه أهم المبادئ التي بنى عليها جون فيرث نظريته، التي استلهمها من أفكار عالم الأنثروبولوجيا مالينوفسكي، الذي سيأتي الكلام عنه لا حقاً في الفقرة الموالية. كما قد يطلق عليه مصطلح سياق الموقف، وهو "السّياق الخارجي للّغة، ويشمل ما يحيط باللفظ من عناصر غير لغويّة، تتصل بالمكان والزّمان وشخصيّة المتكلّم والمخاطَب والحركات والإشارات التي تسهم في تحديد دلالة الكلمة، فاللّغة ليست شيئا مجرّدًا عن الواقع الذي توجد فيه لأنّها اجتماعيّة وتتفاعل مع المجتمع والواقع، فسياق الحال " يتعدى الجملة والعبارة، ويشمل كل ما يتّصل بالكلمة من ظروف وملابسات"[6]. كما يذكر الدّارسون اللّغويّون السّياق العاطفي الذي يعد قسما من أقسام سياق الحال، والذي يحدّد مستويات الانفعال بين القوة والضّعف، فكلمات: أريد، أرغب، أشتهي، أحب، أعشق مختلفة من حيث المعنى، والمحدّد لاختيار إحداها دون سائرها هو الانفعال العاطفي، فهو الموجه والمحدّد للدلالات، وكذلك السّياق الثّقافي، الذي يرتبط بثقافة مستعمل اللّغة، والطّبقة الاجتماعيّة التي ينتمي إليها، ودرجة تحضره فمثلا كلمة (عمليّة) يختلف مدلولها بين الطّبيب والفلاح والقائد العسكري وكلمة (جذر) بين الفلاح وأستاذ الرّياضيات ومعلّم علم الصّرف.

ومن أجل هذا فإنّ نظريّة سياق الحال أصبحت تشكل ركنا من أركان الدّرس اللّغويّ، لها أسسها ومقوماتها، وقد خلص الدّارسون إلى تلك الأسس والمبادئ التي تتمثّل في الآتي:

الأوّل: "وجوب اعتماد كل تحليل لغوي على سياق الحال، ولا بد من ملاحظة كل ما يتصل بهذا السّياق، ويجب معرفة كل ما يتّصل بهذا السّياق

من ظروف وملابسات وقت الكلام الفعلي، ومعرفة الأحداث غير الكلاميّة مثل الإشارات وتعبيرات الوجه والانفعالات وما إليها.

الثّاني: وجوب تحديد بيئة الكلام المدروس وصيغته.

الثّالث: الكلام اللّغويّ عند فيرث مكون من أحداث معقدة ومركبة، وعليه يجب تحليله على مراحل تتمثل في علوم اللّغة"[7].

وهذه العناصر الثّلاثة تتسع عند التّفصيل إلى عدد كبير من العناصر الجزئيّة المتفرّعة عن كل عنصر، ومنها "الزّمان والمكان والموقف والنّهايات وشكل الكلام، ووسائل الكلام ومعاييره، وجنس المتكلّم وثقافته ومعتقده ومكانته وسماته الخلقيّة والخُلقيّة من صدق أو كذب وأمانته ...إلخ"[8]، فسياق الحال يحتاج إلى خطوات ومعارف مدمجة، ينبغي التّعرف عليها بدقة، ويكون التّقرب من المعنى الدّقيق بقدر التّحكم في هذه العناصر مجتمعة، وهذا ما جعلها أكثر دقّة، وأقرب النّظريات إلى تحديد المعاني والدّلالات.

3. نشأتها وتطورها: تعود نشأة المصطلح إلى الأنثروبولوجيين، ويرجع "استعماله إلى مقال للأستاذ هوكارت في مجلّة علم النّفس البريطانيّة سنة 1912 م"[9]، ويذكر عبده الرّاجحي أنّ نظريّة سياق الحال "إنّما ترجع بعض ملامحها إلى لغويي القرن التّاسع عشر، قد عرض فيجينر لما أسماه نظريّة الموقف"[10]، لكن معالمها الرّئيسيّة ترجع إلى مالينوفسكي (1884م –1943م) الذي استخدم المصطلح بعد ذلك سنة 1923 م في مقال له بعنوان: "مشكلة المعنى في اللغات البدائيّة"[11].

وقد نشأ اهتمام مالينوفسكي باللّغة عن عمله في إحدى الجزر، فلجأ إلى هذا المصطلح ليشير به إلى الظّروف المحيطة بالكلام لتباعده عن فهم الكلام، وقد ألجأه ذلك إلى عجزه عن الوصول إلى ترجمة مُرضيّة للنصوص اللّغويّة التي سجلها في هذه الجزر، وزعم مالينوفسكي أنّ "الكلام المنطوق يكون له معنى فقط لو رأيناه في السّياق الذي استخدم فيه، وأنّ اللّغات الحيّة يجب ألاّ تعامل

معاملة اللغات الميتة، تنزع من سياق حالها، بل ينظر إليها كما استخدمها أفراد للصّيد أو الحرث أو البحث عن السّمك ....إلخ"[12]، وسياق الحال عند مالينوفسكي يعني ذلك الجزء من العمليّة الاجتماعيّة الذي لا يمكن تأمله منفردًا، أو هو تلك السّلسلة المتتابعة من الأحداث التي تكون على هيئة صور في رسم أي مجموعة فعليّة من الأحداث يمكن ملاحظتها"[13].

كما يرى مالينوفسكي أنّ الهدف الأساس للدراسة اللّغويّة هو دراسة الخطاب الحي في سياقه الموقفي الفعلي، وأنّ هذه الدّراسة تتطلب المنهج التّجريبي المبني على الملاحظة والاختبار في علم اللّغة.

وقد تأثر جون فيرث المعلّم الأوّل لعلم اللّغة في بريطانيا بفكرة مالينوفسكي– كما أسلفنا الذّكر– عن سياق الحال، وتبناها واعترف بأنّه مدين له، وتطرق إلى أهم الإضافات التي جاء بها فيما يتعلق بسياق الحال وهي:

–تقديم نظريّة عامّة وبخاصّة استعماله لتصورات سياق الحال وأنماط الوظائف الكلاميّة؛

–تقريره أنّ معنى اللّفظة يتحدّد بالإشارة إلى السّياق الاجتماعي؛

–بحثه قضيّة المعنى والتّرجمة؛

–بحثه صلة اللّغة بالثّقافة وصلة علم اللّغة بالأنثروبولوجيا.

ولذلك يصح القول بأنّ فيرث أقام نظريته عن سياق الحال على أساس أفكار مالينوفسكي، وقد أقر بذلك، جاعلا سياق الحال التّصور الأساس في علم الدّلالة، وعمل على استدراك بعض النّقائص من أجل جعل هذا الأخير أكثر دقة وإحكاما، خاصّة وأنّ مالينوفسكي لم يكن لغويا.

4.جذورها في التّراث اللّغويّ العربي: لقد اهتم العرب اهتماما بالغا بالسّياق على الرّغم من أنّهم لم يحددوا المصطلح، إلاّ أنّه متجذر في التّراث العربي عند علماء البلاغة والنّحو والأصول والتّفسير، وأطلقوا عليه عدة مصطلحات مثل الحال والدّليل والقرينة والمقام والموقف وغير ذلك.

فأمّا البلاغيون فتظهر عنايتهم به من خلال قولهم: لكل مقام مقال مؤكّدين على أهميّة مراعاة المقام، فهذا الجاحظ ينقل ما نصّه: "ومن حق علم المعنى أن يكون الاسم له طبقا، وتلك الحال له وفقا، ومدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم، والحمل عليهم على مقدار منازلهم"[14].

كما ينقل الجاحظ أيضًا كلاما في هذا السّياق لبشر بن المعتمر نصّه: "ينبغي للمتكلّم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حالة من ذلك مقامًا، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات"[15]، فنلاحظ هنا اهتمامًا بحالات المستمعين التي توجب أقدارا من المعاني، ولكل قدره.

ويربط السّكاكي حسن الكلام وقبحه بالحال فيقول: "إنّ مدار حسن الكلام وقبحه على انطباق تركيبه على مقتضى الحال، وعلى لا انطباقه"[16] ويؤكّد القزويني الفكرة ذاتها فيقول: "وارتفاع شأن الكلام في الحسن والقبول بمطابقته للاعتبار المناسب، وانحطاطه بعدم مطابقته له"[17].

ممّا سبق يتّضح أنّ مقتضى الحال هو ما يستدعيه الواقع أو يستلزمه الموقف الذي حدث فيه الكلام، وفي مقدّمة هذا الموقف حال المخاطبين، إذ يقتضي هذا الحال كلاما على وجه مخصوص، ولن يطابق الكلام الحال إلاّ إذا كان يوافق عقول السّامعين، وهذا ما يعكس مدى اهتمام البلاغيين بالسّياق.

وفيما يلي نماذج عمّا وصفه البلاغيون بأنّه كلام غير بليغ من جهة عدم مطابقته لمقتضى الحال، مع تحديد أي نوع يوافقه من أنواع السّياق:

–أنشد الشّاعر أبو النّجم أرجوزة بين يدي الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، والخليفة يصفق بيديه لما استحسنه منها، فلمّا انتهى إلى قوله[18]:

حتى إذا الشّمس اجتلاها المجتلي*** بين سماطي شفق مرعبـــــل

صغواء قد كـادت ولمـــــا تفعل*** فهي على الأفق كعين الأحول

أمر هشام بوجئ رقبته، أي بضرب عنقه، وإخراجه، وذلك أنّ هشام كان أحول، فكأنّما الشّاعر يعرّض به، والشّاعر في تشبيهه للشمس بعين الأحول لم يراع حال المخاطَب، لأنّ الحَوَل عيب خلقي، فلا ينبغي أن يُذكر أمام الخليفة إذ كان أحول، ولم يعتبر البلاغيون والنّقاد هذا البيت بليغا لأنّه أهمل سياق الموقف وأثار غضب المخاطَب.

–ذكر المرزباني في الموشح[19] أنّ جريرا الشّاعر أنشد الخليفة عبد الملك بن مروان حائيته الشّهيرة، فلمّا قال في مطلعها:

أتصحو أم فؤادك غير صاح؟

قال عبد الملك: بل فؤادك يا ابن اللخناء.

فإنّ اعتراض الخليفة على جرير من جهة تساؤله: أم فؤادك؟ وإنّما قصد جرير نفسه، غير أنّ عبد الملك استهجن هذا المطلع الذي غفل فيه جرير عن الموقف الذي هو فيه وأنّه بحضرة الخليفة يخاطبه.

–وردت في "محاضرة الأبرار "قصّة طريفة للشّاعر علي بن الجهم" وكان بدويًا جافيًا، لما قدم على المتوكل وأنشده يمدحه بقصيدته التي يقول فيها يخاطب الخليفة:

أنت كالكلب في حفاظك للود *** وكالتيس في قراع الخطوب

أنت كالدّلو لا عدمناك دلــوا *** من كبار الدّلا كثير الذّنوب

فعرف المتوكل قوته، ورقة مقصده، وخشونة لفظه، فعرف أنّه ما رأى سوى ما شبّه به، لعدم المخالطّ، وملازمة الباديّة، فأمر له بدار حسنة على شاطئ دجلة، فيها بستان يتخلله نسيم لطيف، يغذي الأرواح، والجسر قريب منه، وأمر بالغذاء اللطيف أن يتعاهد به. وكان يركب في أكثر الأوقات، فيخرج إلى محلاّت بغداد، فيرى حركة النّاس، ولطافة الخضر، ويرجع إلى بيته، فأقام ستة أشهر على ذلك، والأدباء والفضلاء يتعاهدون مجالسّته ومحاضرته، فاستدعاه الخليفة بعد هذه المدة لينشده، فحضر وأنشد:

عيون المها بين الرّصافة والجسر ***جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

فقال المتوكّل: لقد خشيت عليه أن يذوب رقة ولطافة"[20]. في هذه القصّة أدرك الخليفة المتوكل السّياق الثّقافي الذي انبعث منه شعر علي بن الجهم وهو سياق البداوة والجفاء، فأحبّ أن يغيره إلى نقيضه، فأمر له بما أمر من توفير عيش متحضر في المدينة، وتبعا لذلك فقد تغير الشّعر من خشونة إلى رقة في اللفظ.

ـ وذكر الأصفهاني في الأغاني[21]: لما بلغ عبدَ الملك قول جرير:

هذا ابن عمي في دمشق خليفة *** لو شئت ساقكم إليّ قطينا

قال: ما زاد ابن المراغة على أن جعلني شرطيا! أمّا لو أنّه قال: لو شاء ساقكم إليّ قطينا لسقتهم إليه كما قال، فلقد فطن الخليفة إلى أنّ السّياق اللّغويّ في البيت لا يناسب مقامه كأمير للمؤمنين، فالضّمير المتصل بالفعل شاء والعائد إلى الشّاعر نسب المشيئة إليه ولم ينسبها إلى الخليفة، فغدا الخليفة بذلك مجرد شرطيّ يأمره الشّاعر بسوق القوم إليه، ولو أنّ الشّاعر استبدل بالتّاء ضميرا مستترا (هو) يعود إلى الخليفة لفعل له الخليفة ما يريد، فالسّياق اللّغويّ الذي أتى به لم يسعفه في ذلك، وبذلك اختلت بلاغة البيت ولم يصل المراد من المتكلّم (جرير) إلى المتلقي (الخليفة عبد الملك) كما يقصد.

هذه أربعة نماذج من الشّعر العربي أغلبها في العصر الأموي، جاء فيها الشّعراء بأبيات تضمّن كل منها خللا بلاغيا، دلّ عليه استهجان السّامعين وعند النّظر نجد أنّ ذلك الخلل راجع إلى الإخلال بنوع من أنواع السّياق: سياق الموقف أو السّياق الثّقافي أو السّياق اللّغويّ، والتي تدل على اهتمام العرب الأوائل بالسّياق، وأنّهم طبقوه في حياتهم بطريقة عمليّة.

5. تطبيق نظريّة سياق الحال على بعض النّماذج من القرآن الكريم:

سنعمد إلى تحليل بعض الآيات القرآنيّة، واستخراج العناصر المكونة لسياق الحال، ومدى تأثير ذلك في الدّلالة.

5-1-قوله تعالى: ﴿ كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أنّ الرّسول حق ﴾ آل عمران، الآيّة 86.

يمكن تحليل عناصر سياق الحال على النّحو الآتي:

– المتكلّم: هو الله عزّ وجلّ؛

– المخاطَب الذي نزلت الآيّة بسببه: رجل من الأنصار، ارتدّ ولحق بالمشركين، ثم ندم، وشاركه المسلمون في السّماع، ومنهم قومه؛

– مكان النّزول: المدينة المنورة؛

– زمان النّزول: بعد الهجرة النّبويّة؛

– أحداث مصاحبة: لما نزلت الآيّة قُرئت عليه من قومه؛

– أثر الحدث الكلامي في المخاطَب (المستمع): تمثل في أمرين، استجابة قوليّة: حيث قال: والله ما كذبني قومي على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ولا أكذبت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، والله عزّ وجلّ أصدق الثّلاثة واستجابة فعليّة تتمثل في توبته"[22].

بحيث يظهر عند التّحليل دلالة هذه الآيّة وتوجيهها دلاليا من خلال معرفة الظّروف المحيطة بالقصّة، وقد اهتم علماء التّفسير بجمع كل هذه الظّروف بما يسمى عندهم: أسباب النّزول.

5-2 – قوله تعالى: ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ البقرة، الآيّة: 143.

وردت في هذه الآيّة الكريمة كلمة الإيمان بمعنى الصّلاة، لأنّ الآيّة نزلت فيمن مات وهو يصلّي إلى بيت المقدس، "فلما وجه النّبي صلّى الله عليه وسلّم إلى الكعبة قالوا: يا رسول الله، كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله هذه الآيّة"[23].

فكلمة الإيمان في المعجم تعني التّصديق ضد الكفر[24]، وقالوا للخليل: ما الإيمان؟ قال: الطّمأنينة[25]، وسياق الحال هنا يضيف للكلمة معنى جديدا زادة

على معانيها المعجميّة، إذ يستحيل أن نعطي كلمة الإيمان معنى الصّلاة، مع عدم معرفة سبب نزول هذه الآيّة، ويمكن تحليل الآيّة على النّحو الآتي:

-الحدث: أمر الله نبيه صلّى الله عليه وسلّم بالتّوجه إلى الكعبة في الصّلاة وترك التّوجه إلى بيت المقدس.

-سؤال المسلمين عن صلاة إخوانهم الذين صلوا معهم في بيت المقدس، ثم توفوا ولم يدركوا الصّلاة إلى الكعبة.

-نزول الآيّة إجابة عن سؤالهم، بنفي إضاعة الله تعالى ما فعلوه، بلفظ الإيمان.

-الأثر: هذه الآيّة فرجت عن الصّحابة، وأبعدت عنهم الخوف والجزع على إخوانهم.

فلا يمكن إذن أن نصل إلى المعنى من دون الرّجوع إلى السّياق، وتعد عناصر سياق الحال فعالة في إضافة معنى الصّلاة إلى معاني لفظة الإيمان.

5-3-قوله تعالى: ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾ الأعراف الآيّة: 31.

عناصر السّياق المحيطة بالآيّة هي:

-مكان النّزول: مكّة؛

-الزّمان: في عهد الرّسول صلّى الله عليه وسلّم؛

-المخاطَب: جميع بني آدم، ولكن هنا نداء مخصوص لمن كان يطوف بالبيت عريانا، وهذه عادة العرب قبل الإسلام؛

-الأثر: بعث الرّسول صلّى الله عليه وسلّم من أذّن في النّاس: لا يطوف بالبيت عريانا، فأمروا بلبس الثّياب فلبسوها[26].

فالمراد بالزّينة في هذه الآيّة الثّياب التي تستر الجسد، وهذا تخصيص للمعنى العام للفظ الزّينة، ولولا سياق الحال المبينة لما عرف أحد المراد بالزّينة كما يعد سبب النّزول العنصر الفعال في تبيان المراد من هذه اللفظة، كما أنّ

المراد بالمسجد: الطّواف، قال القرطبي: "ومن العلماء من أنكر أن يكون المراد به الطّواف، لأنّ الطّواف لا يكون إلاّ في مسجد واحد، والذي يعم كل مسجد هو الصّلاة وهذا قول من خفي عليه مقاصد الشّريعة"[27]، والذي أضاف معنى الطّواف إلى كلمة المسجد هو سياق الحال.

5-4-قوله تعالى: ﴿إنّ شانئك هو الأبتر﴾ الكوثر، الآيّة: 3.

عناصر سياق الحال المحيطة بالآيّة هي:

– المكان: المسجد الحرام؛

– الزّمان: قبل الهجرة؛

– الأحداث المصاحبة: لقاء النّبي صلّى الله عليه وسلّم مع العاص بن وائل ومحادثة تجري بينهما، مع وجود جماعة من صناديد قريش جالسّين بالمسجد؛

–سؤال الكفار وائل عن سبب الحديث، وقوله: ذاك الأبتر، مشيرا إلى النّبي صلّى الله عليه وسلّم، وكان عبد الله بن النّبي صلّى الله عليه وسلّم قد توفي قبل ذلك، وعادة العرب أن يسموا من ليس له ابن ذكر بالأبتر؛

– نزول السّورة، والمخاطب فيها هو النّبي صلّى الله عليه وسلّم ويظهر من هذا كلّه أنّ المراد بالأبتر هو العاص بن وائل[28]، مع أنّ كلمة الأبتر تعني في المعاجم، المقطوع الذّنب من أي موضع كان من جميع الدّواب.[29]

5-5-قوله تعالى: ﴿ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرّعون﴾ المؤمنون، الآيّة 76.

عناصر سياق الحال المحيطة بالآيّة هي:

– مكان النّزول: مكّة؛

– زمان النّزول: قبل الهجرة؛

–سبب النّزول: في شأن قريش، بعد أن أسلم ثمامة بن أثال اليمني، وحال بين مكّة وبين الميرة، وقوله: والله لا يأتيكم من اليمامة حبّة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؛

–أخذ الله قريشا بسنوات الجدب والقحط، حتى أكلوا الوبر بالدّم يشوونه ويأكلونه– مجيئ أبي سفيان إلى النّبي صلّى الله عليه وسلّم يشكو إليه حال قريش، ويقول له: قتلت الآباء بالسّيف والأبناء بالجوع[30].

فهذه العناصر تشير إلى معنى العذاب في الآيّة، لأنّ العذاب طرقه كثيرة وهنا حصل تخصيص للمعنى العام، الذي هو الجوع من سائر أنواع العذاب الأخرى.

5–6–قوله تعالى: ﴿ واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر﴾ الطّلاق، الآيّة 4.

وقد أشكل هذا الشّرط (إن ارتبتم) على بعض الأئمة، وأزاله سبب النّزول "فالآيّة نزلت جوابا على سؤال أناس أتوا إلى النّبي صلّى الله عليه وسلّم فقالوا: قد عرفنا عدة ذوات الأقراء، فما عدة اللائي لم يحضن من الصّغار والكبار؟ فنزلت لتعين معنى الشّرط (إن ارتبتم)، أي: إن أشكل عليكم حكمهن وجهلتم كيف يعتدون فهذا حكمهن"[31]. ومعنى (ارتاب) في هذه الآيّة له علاقة بسبب النّزول، ولا يمكن الكشف عن معناه من خلال السّياق اللّغويّ، كما لا يمكن معرفته من خلال المعنى المعجمي لأنّ المعجم يخلو من هذه الدّلالة التي أضافها سياق الحال، الذي كشف عن معنى جديد وهو الإشكال والجهل وهنا ندرك مزيّة سياق الحال.

5–7–قوله تعالى: ﴿ وما يتلى عليكم في يتامى النّساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن﴾ النّساء، الآيّة: 127.

قال القرطبي في قوله تعالى: "وترغبون أن تنكحوهن" أي: ترغبون عن أن تنكحوهن ثم حذفت عن، وقيل: ترغبون في أن تنكحوهن ثم حذفت في"[32]. وعلى ذلك فإنّ المعنى الذي يعطيه السّياق اللّغويّ يحتمل الإقدام على النّكاح والإعراض عنه، وفي هذا غموض يجليه معرفة سياق الحال، فقد روى سعيد بن جبير ومجاهد أنّ ولي اليتيمة يرغب في زواجها إذا كانت كثرة المال وهذا

السّياق الحالي يعين المعنى الأوّل وحذف (في)، وروى عن عائشة رضي الله عنها "وترغبون أن تنكحوهن رغبة أحدكم عن يتيمته حين تكون قليلة المال والجمال"[33]، وهذا السّياق الحالي يعين المعنى الثّاني وحذف وحذف عن فالسّياق اللّغويّ يحتمل الحذفين والمعنيين، وسياق الحال يحدد أحد المعنيين وأحد الحذفين، كلا بحسبه، لأنّ الحالين لا يمكن أن يجتمعا في وقت واحد ولذا لا يجتمع المعنيان في حال واحدة، خاصّة أنّهما معنيان متضادان، وهنا نقول: إنّ السّياق اللّغويّ عاجز وقاصر عن تحديد معنى اللفظ الذي يحتمل معنيين ليأتي سياق الحال من أجل حل هذه المشكلة.

هذه بعض النّماذج التي تيسر لنا الوقوف عندها، وتحليل عناصر سياق الحال المحيطة بها، والتي تظهر أهميّة سياق الحال، ودوره في تحديد دلالة الألفاظ، وتفسير ما استشكل من معاني بعض الآيات، والتي ساعدت المفسرين في إظهار ما خفي عليهم، والتي من خلالها تمكننا من معرفة الفرق بين سياق الحال والسّياق اللّغويّ، هذا الأخير الذي يبقى قاصرا في تحديد المعاني، وإزالة الغموض في كثير من الحالات، وقد اتضح ذلك جليا لا سيما من خلال تحليلنا للآيتين الأخيرتين.

6. خاتمة: من خلال هذه الدّراسة التي تمحورت حول نظريّة سياق الحال وتطبيقها على بعض الآيات القرآنيّة يمكن الوصول إلى بعض النّتائج، التي نجملها في النّقاط الآتيّة:

–تعد نظريّة سياق الحال من أهم النّظريات التي تحل مشكلة المعنى بالنّظر إلى أسسها المتينة التي تقوم عليها؛

–نظريّة سياق الحال لها جذور في تراثنا العربي، خاصّة علماء البلاغة؛

–هناك تقاطع بين الدّرس اللّغويّ القديم والحديث؛

–مصطلح سياق الحال في الدّرس الدّلالي الحديث أدق وأشمل؛

–ضرورة استثمار هذه النّظريّة في تفسير النّص القرآني، لما تتميز به من القدرة على معرفة كل الظّروف والملابسات المحيطة به، مع عدم إهمال السّياق اللّغويّ؛

–السّياق اللّغويّ لا يمكنه تفسير المعاني بمعزل عن سياق الحال.

7. قائمة المراجع:

– أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللّغة، تح: محمد عبد السّلام هارون، دار الفكر، دمشق دط، 1977م.

– بالمر، علم اللّغة، تر: صبري إبراهيم السّيد، دط، سنة: 1995 م.

– الجاحظ، البيان والتّبيين، دار الفكر، بيروت، دط، دت.

– الزّبيدي، تاج العروس، دا إحياء التّراث العربي، لبنان، ط1، دت.

_ الزّركشي، البرهان في علوم القرآن، دار الكتب العلميّة لبنان، ط1: 1988م.

– ابن قتيبة، الشّعر والشّعراء، دار المعارف، القاهرة.

– السّكاكي، مفتاح العلوم، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط2: 1965 م.

– السّيوطي، لباب النّقول في أسباب النّزول، تح: حمزة النّشرتي، المكتبة القيمة، القاهرة دط دت.

– عاطف مدكور، علم اللّغة بين التّراث والمعاصرة، دار التّراث العربي، بيروت، ط 2: 1987 م.

– عبده الرّاجحي، فصول في علم العربيّة، دار المعرفة الجامعيّة، مصر، دط.

– أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، دار صادر بيروت لبنان ط 3: 2008 م.

– فريد عوض حيدر، فصول في علم الدّلالة، مكتبة الآداب القاهرة، ط3: 2011 م.

– القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تح: محمد إبراهيم الحفناوي، دار الحديث، القاهرة ط1 1994 م.

– القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1، 2003 م.

– محمد علي الخولي، معجم علم اللّغة النّظري، مكتبة لبنان، 1982 م.

– محمد المرزباني، الموشح في مآخذ العلماء على الشّعراء، دار الكتب العلميّة، بيروت ط01، 1995م.

– محمود السّعران، علم اللّغة، مقدمة للقارئ العربي، دار الفكر العربي، دمشق سوريا، د ط، دت.

– محي الدّين بن عربي، محاضرة الأبرار، دار الكتب العلميّة بيروت.

– ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت لبنان، ط 3: 1414هـ.

8. هوامش:

1-أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللّغة، تح: محمد عبد السّلام هارون، دار الفكر، دمشق دط، 1977م، ج 3 ص:117.

2-ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت لبنان، ط 3: 1414هـ، ج 11 ص: 190.

3-المصدر السّابق نفسه، الصّفحة نفسها.

4-محمد علي الخولي، معجم علم اللّغة النّظري، مكتبة لبنان، 1982 م، ص: 259.

5 -محمود السّعران، علم اللّغة، مقدمة للقارئ العربي، دار الفكر العربي، دمشق سوريا، د ط، د ت، ص: 393.

6-ينظر: ستيفن أولمن، دور الكلمة في اللّغة، تر: كمال محمد بشر، دار غريب للطباعة والنّشر، مصر، د ط، د ت، ص: 62.

7-ينظر: فريد عوض حيدر، فصول في علم الدّلالة، مكتبة الآداب القاهرة، ط3: 2011 م ص: 132.

8-المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

9-محمود السّعران، علم اللّغة، مقدمة للقارئ العربي، ص: 338.

10-عبده الرّاجحي، فصول في علم اللّغة، دار المعرفة الجامعيّة، مصر، دط، ص: 73.

11-عاطف مدكور، علم اللّغة بين التّراث والمعاصرة، دار التّراث العربي، بيروت، ط 2: 1987 م، ص: 243.

12-بالمر، علم اللّغة، تر: صبري إبراهيم السّيد، دط، سنة: 1995 م، ص: 84.

13-المرجع نفسه، ص: 77.

14-الجاحظ، البيان والتّبيين، دار الفكر، بيروت، دط، دت، ص: 93.

15-المصدر نفسه، ص: 139.

16-السّكاكي، مفتاح العلوم، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط2: 1965 م، ص: 39.

17-القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1، 2003 م، ص: 20.

18-ابن قتيبة، الشّعر والشّعراء، دار المعارف، القاهرة، ص604.

19-محمد المرزباني، الموشح في مآخذ العلماء على الشّعراء، دار الكتب العلميّة بيروت ط01، 1995م، ص28.

20–محي الدّين بن عربي، محاضرة الأبرار، دار الكتب العلميّة بيروت ج 2، ص: 65.

21–أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، دار صادر بيروت لبنان ط 3: 2008 م، ج 8 ص، 44.

22–القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تح: محمد إبراهيم الحفناوي، دار الحديث، القاهرة ط1: 1994 م، ج4 ص: 137.

23–السّيوطي، لباب النّقول في أسباب النّزول، تح: حمزة النّشرتي، المكتبة القيمة، القاهرة دط، دت، ص: 23.

24–ابن منظور، لسان العرب، ج 13، ص: 21.

25–نفسه، ص: 24.

26–القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج7، ص: 183.

27–المصدر نقسه، الصّفحة نفسها.

28–السّيوطي، أسباب النّزول، ص: 260.

29–الزّبيدي، تاج العروس، دار إحياء التّراث العربي، لبنان، ط1، دت، ج10، ص: 95

30–السّيوطي، أسباب النّزول، ص: 171. 30

31–الزّركشي، البرهان في علوم القرآن، دار الكتب العلميّة، بيروت لبنان، ط1: 1988م ج 1 ص: 52.

32–القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج3، ص: 402.

33–المصدر نفسه، الصّفحة نفسها.